بمناسبة مرور أربعين عاما على وفاة

السيدة عائشة عصمت تيمور

للأستاذ إسحق شموش

في مثل هذا الشهر (مايو) من عام ١٩٠٢ ، فجع الأدب العربي بوفاة الأديبة الكبيرة عائشة عصمت تيمور ، التي جدّدت في العصر الحديث عهد ربات الخدور بالأدب ، وساهمت في النهضة النسائية المصرية بنصيب وافر وقسط عظيم

وهي تمت إلى الدوحة التيمورية الكريمة التي منحت العربية ما لم تمنحه أية أسرة مصرية أخرى ، لغويين وشعراء ، وكتاب ، وقصصيين ، نهضوا بلغة الضاد وآدابها نهضة جبارة ، وسموا لرفعهما إلى مصاف سائر اللغات والآداب الراقية سمياً يبعث على التقدير والإعجاب

فالسيدة عائشة هي كريمة رب السيف والقلم إسماعيل باشا تيمور ، وشقيقة اللغوي القدير أحمد باشا تيمور ، وعمة القصصي الأستاذ محمود تيمور الذي يعد بحق خير خلف لخير سلف

وقد ولدت في مدينة القاهرة سنة ١٢٥٦ هجرية الموافقة لسنة ١٨٤٠ ميلادية ، وأبدت منذ نعومة أظفارها ميلاً قوياً للدراسة ، وشغفاً عظيما بالمطالعة ، فتعلمت العربية ، والتركية ، والفارسية ، وأجادت الكتابة والنظم في كل منها إجادة غير يسيرة ؛ إلا أن والدتها حاولت صرفها عن الأدب إلى التطريز والنسج ، ولكن بدون جدوى ، فنشأ عن ذلك نزاع بينهما ، وصفته عائشة في مواضع مختلفة من مؤلفاتها :

« لما تهيأ العقل للترقي ، وبلغ الفهم درجة التلقي ، تقدمت إليّ ربة الحنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والإتحاف ، والدتي تغمدها الله بالرحمة والغفران ، بأدوات التطريز والنسيج ، وصارت تجد في تعليمي ، وتجتهد في تفطيني وتفهيمي ، وأنا لا أستطيع التلقي ، ولا أقبل في حرفة النساء الترقي ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فأجد صرير القلم في القرطاس أشهى نفحة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ، وكنت ألتمس من شوقي قطع القراطيس ، وصغار الأقلام ، وأعتكف منفردة عن الأنام ، وأقلد الكتاب في التحرير ، لأبتهج بسماع هذا الصرير ، فتأتي والدتي وتعنفني بالتكدير والتهديد ؛ فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز قصوراً »[1]

وعلى نقيض ذلك كان والدها يشجعها على دراسة الأدب وممارسته : « فبادر والدي تغمّده الله بالغفران ثراه وقال لها : دعي هذه الطفيلة للقرطاس والقلم[2] »

وقد كررت الإشارة إلى تشجيع والدها بصورة أوضح في مقدمة ديوانها التركي الفارسي ، فوضعت على لسانه وهو يخاطب والدتها العبارات التالية :

« ما دامت ابنتنا ميّالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقفي في سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالي نتقاسم بنتينا : فخذي « عفت » وأعطني « عصمت » ؛ وإذا كان لي من « عصمت » كاتبة وشاعرة ، فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي[3] » .

وقد تحقق رجاء اسماعيل باشا تيمور ، فكانت « عصمت » مجلبة رحمة له ، بل ومجلبة شهرة وفخر كذلك

وتزوجت « عائشة » باكراً جداً في الرابعة عشرة (١٨٥٤ — ١٢٧١) من محمد بك توفيق الاسلامبولي ، ورزقت منه بـ « محمود » و « توحيدة » ، غير أنها رزئت بفقد هذه الأخيرة قبل أن تتجاوز الربيع الثامن عشر ، فبكتها أحر بكاء ، إلى أن كلّ بصرها ، وأصيبت برمد شديد لبث يختلف عليها إلى آخر حياتها

وقد رثت « توحيدة » بقصيدة رائعة ، مطلعها :

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور[4]

وربما كان أجود ما فيها البيت التالي :

لو بث حزني في الورى لم يلتفت لمصاب قيس ، والمصاب كثير[5]

وقد جمع شعرها العربي في ديوان « حلية الطراز » كما جمع شعرها التركي والفارسي في ديوان « شكوفه » . ومن آثارها النثرية مجموعة قصص على نمط « ألف ليلة وليلة » دعتها « نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال » ، وأبحاث اجتماعية معروفة بـ « مرآة التأمل في الأمور »

ويتسم شعرها بالنزوع إلى القديم نزوعاً قوياً ، ولا سيما في تشبيهاته واستعاراته وكناياته ، فاللحاظ سيوف ، والخدود ورود ، والقدود غصون ، والأسنان درر ، وباب الممدوح كعبة

(١) و (٢) كتاب « نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال »
(٣) مقدمة ديوان « شكوف »
(٤) و (٥) ديوان « حلية الطراز » ص ١٧

أولى السجود ، وليس الممدوح سوى كوكب يتألق فى سماء العز والمجد ، أو بدر يلمع فى ليالى الشقاء والبؤس ... الخ

والميزة البارزة فى شعرها التى تجعل له قيمة أدبية ، هى الصدق فى التعبير عن عواطفها ، وهذا الصدق أكثر ما يتجلى فى مراثيها التى تبكى فيها أعز الناس لديها ، وأحبهم إليها

وقد قصرت شعرها ، أو كادت تقصره على أغراض ثلاثة :

١ — « المدح » : ويشكل قسماً كبيراً من شعرها ، ويكاد ينحصر فى خديو مصر الذى يمثل لديها الزعيم السياسى والدينى معاً ، الجدير بالطاعة العمياء والإعظام الذى لا يقف عند حد

ومما لا ريب فيه أنها كانت صادقة الولاء فى مدحها ، ولم تتخذه أداة للكسب كما كان يفعل كثير من شعراء عهدها

غير أنها أسرفت كثيراً فى مدح الخديو حتى أنها لم تتورع عن رفعه إلى مصاف الملائكة ، ونسب أكبر مقدار من أكرم الصفات والمزايا إليه :

لو قيل للشرف اختر قال خدمته
أو قيل للدهر سابق عزمه افتضحا (١)

فالنصر عونك ، والزمان مطاوع
والسعد عبد ، والكمال صديق (٢)

ولا فرق عندها بين خديو وآخر ، إذ أن مدحها للبخديوية نفسها لا لشخص الخديو ، وهذا هو السر فى كونها مدحت الخديو سعيد والخديو اسماعيل ، كما مدحت الخديو توفيق والخديو عباس ؛ كأنما كل من يتسنم أريكة الخديوية يصبح أهلاً للمدح ، وأى مدح !

٢ — الرثاء : وقد توفرت على الرثاء بقدر ماتوفرت على المدح ، وكما قصرت مدحها أو كادت تقصره على الخديو ، قصرت رثاءها أو كادت تقصره على أفراد أسرتها والمقربين إليها ، فرثت ابنتها ، ورثت شقيقتها ورثت والدها ووالدتها وأستاذها الشيخ ابراهيم السقا الخ ...

وفى رثائها أيضاً لم تتحرج من الغلو والإسراف

عزّ العزاء على بنى الغبراء لما توارى البدر فى الظلماء (٣)

أو :

إنى ألفت الحزن حتى إننى لو غاب عنى ساءنى التأخير (٤)

(١) ديوان «حليه الطراز» ص١٥ (٢) ديوان «حلية الطراز» ٢٢
(٣) « « « ص٢٨ (٤) « « « ص١٩

وقد برعت فى هذا الضرب من الشعر براعة فائقة ، ووفقت إلى تصوير لوعتها وحزنها عند ما كانت تحد بها المصائب توفيقاً عظيماً مما يدل على أنها كانت ترثى عن حرقة حقيقية لا أثر للتكلف والتصنع فيها .

٣ — الغزل : وأكثره من الغزل الصوفى الذى يكاد يكون مقصوراً على النبى العربى محمد بن عبد الله ، وقد مهدت له بـ « قالت مستفيئة » أو « قالت توسلاً » وما أشبه

ومن أروع قصائدها فى هذا الغزل الدينى ميميتها التى مطلعها :

أعن وميض سرى فى حندس الظلم
أم نسمة هاجت الأشواق من أضم (١)

حيث تقول :

روحى الفداء ومن لى أن أكون له
هذا الفـــداء وموجودى كنعدم

وما هى الروح حتى أفتديه بها
وهى البغاث بغاء الظـــلم والظلم (٢)

وتتخلل بعض قصائدها أبيات قليلة ، فيها عن نفسها حديث لا يخلو من فخر وتحدٍ :

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر قبلى ذوات الخدر والأحساب
وخصصت بالدر الثمين وحامت الـ
ـخنساء فى صخر وجوب صعاب (٣)

كما لا يخلو من إشارة مزهوة إلى فضلها على سائر النساء اللواتى إن نظرن فى المرآة فللتجمل والتزين ، وأما هى :

فجعلت مرآتى جبين دفاترى وجعلت من نقش المداد خضابى
كم زخرفت وجنات طرسى أنملى بعذار خط أو إهاب شباب (٥)

ومع أنها شاعرة لا ثائرة فقد لجأت إلى النثر أحياناً لمعالجة بعض القضايا النسائية كقضية السفور والحجاب مثلاً التى أثارها فى عهدها المصلح الاجتماعى الكبير قاسم بك أمين ، إلا أنها لم تبد فى هذه القضية رأياً صريحاً كما أنها لم تثبت على رأى واحد بصددها ، فقد يفهم أنها حجابية من الأبيات التالية :

بيد العفاف أصون عن حجابى وبعصمتى أسمو على أترابى (٤)
ما ساءنى خدرى وعق عصابتى وطراز ثوبى واعتزاز ردابى
ما عاقنى خجلى عن العليا ولا سدل الخمار بلمتى ونقابى

(١) ديوان «حلية الطراز» ص٤ (٢) «ديوان حلية الطراز» ص ٥
(٣) « « « ص٣ (٤) « « « ص٣
(٥) ديوان «حلية الطراز» ص٣

عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت
صعب السباق مطامح الركاب(١)

كما يفهم أنها سفورية من الجملة التالية :

« وأنا بين جدران الخدر كقطاط سجنها المطر ، وعاقها عن الانسياب برق يخطف البصر »(٢)

وأما موقفها من قضية المرأة المسلمة ، فهو موقف المحافظات المسرفات في المحافظة ، ولا أدل على ذلك من بحثها « مرآة التأمل في الوجود » حيث تصطنع لسان فقهاء الإسلام لمعالجة مواضيع على جانب كبير من الخطورة :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . فالرجل يقوم بأمر الزوجة مجتهداً في حفظها وصيانتها وأداء كل ما تحتاج إليه ؛ ثم إن الحق لم يكتف بالحكم حتى بين السبب بقوله بما فضل الله يعنى بأمور لها وفرة في العقل والدين ، ولذا جعل لهم الولاية والإمامة ، وجعل فيهم الخلفاء والأئمة ، وميزهم في الشهادة بين الأمة ، فقال في آية أخرى : فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى »(٣)

إن الرجال أسود عزت رفعة … تسطو على روض العلا وتصول
لهم النضير بكل غصن مثمر … وسواعد للساميات تطول
حازوا المكارم تحت عزة فضلهم … وشهودهم بين الأنام عقول(٤)

وهي تخلص من ذلك إلى استنكار بحث الشبان حين الزواج « عن الحلى والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتدين والعفة والوقار(٥) وتصب جام غضبها على الرجال الذين يتركون سلطتهم تنتقل إلى زوجاتهم ، وتضرب لهم المثل التالي :

وهو أن أسداً تكاسل عن الصيد ، وغله الجبن بالقيد ، فأمر لبوته أن تنوب عنه ، وتأتي بالفريسة بدلاً منه ، فانقادت لأمره ، وسارت على ما عهدته من سيره ، واستمرت مدة على هذا الحال . فلما طال الشرح عليها صارت تصطاد وتأكل ما اشتهت من أطايب اللحوم ولذائذ الأكباد ، وتلقى إليه من فضلات ما بقي . فاستشاط الأسد غيظاً ورأى أن ذلك إهانة لوقاره ، ومجلبة لعاره ، فقال لها خزيت يا لكاع ، كيف تأتيني بسقط المتاع ، وتجسرين على أكل الطايب قبلي ، وتخفضين رفعتي وتنسين فضلي ؟ إن كان غلب الشره عليك ، واستحيت أن تأكلي بحضرتي ، فأعدي لي أطايب الطعام ، وقدميها إليّ أولاً كما جرت به العادة في سالف الأيام . فضحكت اللبوة منه ، وقالت قد أخطأ وهمك ، وغلظ فهمك ، إني لم أنس فضلك ، ولم أجهل قدرك ، ولكن كان ذلك مذ كنت أنت أنت وأنا أنا ؛ وأما الآن فقد انعكس الحال وصرت أنا أنت ، وأنت أنا ، فلك على ما كان لي عليك . فأفحم الأسد ، ورجع على نفسه باللوم رجوعاً ، وآل على نفسه ألا يستعين بها على الصيد ولو مات جوعاً(١)

وهذا المثل كالأمثلة النثرية التي تقدمته ـ يدل دلالة واضحة على أن صلة نثرها بالقديم وثيقة ، كصلة شعرها ، إن لم تكن أقوى وأشد ، إذ جرت فيه على نسق المقامات وكليلة ودمنة ، فأغرقته في فيض من المحسنات البديعية ، اللفظية منها والمعنوية ، وأفعمته بالأمثلة على ألسنة الطيور والحيوانات

وعلى كل فما لا ريب فيه أن تأثيرها فيمن تتلمذ عليها من ذوات الحجال كان عظيما ، ولا سيما في الأديبتين النابهتين أمينة نجيب وباحثة البادية (ملك حفني ناصف) اللتين برزتا على أقرانهما ، ونعمتا بشهرة أدبية واسعة

ونحن إذ نذكر اليوم السيدة عائشة تيمور ، فإنما نذكر أول من رفعت لواء الأدب من ربات الخدور في النهضة الحديثة ، وأول من لجأت في العصر الأخير لبيان بنات أفكارها إلى روائع النظم والنثر .

إزابل شمرسه
أستاذ الأدب العربي الحديث
بالجامعة العبرية

(١) ديوان « حلية الطراز » ص ٤
(٢) « بلاغة النساء في القرن العشرين » ص ٩٢
(٣) » » » » » ص ٩٥
(٤) » » » » » ص ١١٤
(٥) » » » » » ص ٩٦

(١) « بلاغة النساء في القرن العشرين » ص ٩٩ ـ ١٠٠

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ٩٤٢ في القضية ١٦٥٠ سنة ٩٤١ بتغريم عبد الفتاح على سيد أحمد بقال بالزقازيق جنيهين وغلق المحل يوما لامتناعه عن بيع كبريت بالتسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ٩٤٢ في القضية ١٦٩٦ سنة ٩٤١ بتغريم زكيه إبراهيم ديب من القراموص خمسين قرشا لبيعها ذرة بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ٩٤٢ في القضية ١٧٢٦ سنة ٩٤١ بتغريم كل من ابراهيم محمد عبد العال ومحمد حسن عيرة بالزقازيق ١٠٠ قرش وغلق المحل يوما لبيعهما خبز بأزيد من التسعيرة